

زكى المحاسنى نايغة من دمشق

للاستاذ وحيد الدين بهاء الدين
أديب السيرة والنقد - العراق

حسب الادب السورى الحديث ان يقدو الدكتور زكى المحاسنى
أحد رواده الناهضين فى جيلنا الحاضر القلق، انه ما انفك يواصل
ترحاله فى كل مسار ومدار، ماكف عن ارتياد شتى الآفاق،
وامتشاف التيارات والاتجاهات تطلبها لابعادها واصداؤها، التقاطاً
لأنوارها وخطوطها، وعياً لمفاهيمها ومضامينها ويحثا عن جمالاتها
وخصائصها، تغريه بذلك كله نزعة مكينة تحتضن التالد والطارف،
وروح مجنحة تؤثر التحليق والانطلاق وفكر مشبوب يستجلى الحياة
ما فيها ومن فيها ويستقطب المجتمع ما له وما عليه.

من هنا ما فى اعتزاز الادب العربى بسورية برجل تجلت فيه
سمات النبوغ، وذكاء القلب ونقاء المعدن كالمحاسنى من دلالة،

حيث أوسع له وأحله المحل الحرى به انسانا واستاذًا، باحثًا وشاعرا، مفكرا ومحققا.

كفاه انه من نوابغ دمشق، ومن بناء مجدها الادبى الاصيل على مدى طويل ناهز الاربعين سنة. ان التاريخ يعرف كيف ينصفه، وكيف يقدر الرسالة التي أداها وقد قاد قافلة الأدب الحديث رائدا طليعا الى جانب عشرينه وزملائه يرتقى معهم سلم المجد، ويدعم النهضة الجديدة، وقد ازدهى به عمق الرؤية وشوق الفن وأمانة الغاية.

ومن أجل هذا كله نفع المحاسنى الخزنة العربية بآثار بارزة هي ألوان من الثقافة المعاصرة فى مجالها وفحواها من فكر وشعر، من بحث ومقالة، من نقد وملحمة ومن خاطرة وسانحة.

المحاسنى فى انتاجه يتفجر عن طاقات ابداعية ضخمة، ترفدها الحياة بمآتيها ومعطياتها، ويخصبها التمرس وتجربة الذات ويطلقها الزمن عبر سيره ودورانه.

إنه يحاول مخلصا تصوير الماضى وإحيائه بتجسيد مضمونه الانسانى، ليصله بالحاضر المائج بالثورة الفكرية، بالتحول الاجتماعى، وبالتكالب المادى لبلوغ المطامح الجائلة فى اغوار الوجدان العربى، ايمانا منه بضرورة نفى غبار التخلف عنها، واسقاط السلبيات ومعاينة التجدد والتطور، ثم إرهابا بأرضية ثابتة لغد أعم جودا وثراء وأعظم بهجة وجدوى، غد يحبو الينا بحكم ناموس الوجود. حتى انك لترى المحاسنى فى مؤلفاته مؤكدا من جهة

على اصالة العرب الحضارية ورفضهم التبعية والهزيمة الفكرية.. ومعبرا من جهة أخرى عن الشخصية الشرقية الاسلامية ذات المقومات الخاصة والمتميزة برصيدها الروحي والعقلي، وياثارها لهذا الرصيد.. لانه طالما رقد حضارة الغرب وتمازج معها قصد التأثير فيها والتأثر بها.

وأحسب المحاسنى على حق فى قوله: «واذا كان شعر الحرب فى الادب العربى هو اقوى ما نظم الشعراء على ترادف الاحقاب فذلك لانه يتصل بالامة فيضم مجد ماضيها الى عزة حاضرها. أنه وحده سجل فخرها، وعنوان بأسها وأنشيد بطولتها».

يتمدد المحاسنى هذا كله لاستغلاله كأداة دفع يحض بها قومه تبصرة لهم وتذكرة بأن لا مندوحة عن السير فى هذا الدرب الطويل الشاق.. لتجديد الثقة بأنفسهم وتوطيدها على توالى الأيام، ولاعتماد العلم والعمل أساسا فى التنظيم والابداع ولالتماس بواعث المجارة للامم الباغلة السمو الحضارى، وذلك حفاظا على كنوزهم وذخائرهم وتحقيقاً لما يخالجهم من الطموحات والامنيات.. وهى مقياس التشرف والاطلال. معنى هذا ان المحاسنى ديدنه، أولا وآخرا، وحدة الهدف بعد وحدة الفكر، فقد قال: ان فكرة «الادب للادب» لاتدخل فى اعمالى الادبية، وان عديد الكتب التى الفتها حتى الآن لا يقوم الا على التربية الاخلاقية وبناء الجيل العربى بالمثل العليا».

مجال القول فى المحاسنى موسوعيا مثقفا.. يعانى تجربة الفن الشعرى، ويخوض مهامة الابحاث الجادة ويزاول مختلف ضروب

التفكير والتعبير.. ذو سعة، يقتضى منى ومن غيرى تفرغا وانكبابا لا أملك من اسبابهما ما يعيننى على ذلك، اذ تتعذر على الاحاطة الكاملة بأعمال المحاسنى الادبية، واشباعها دراسة وتحليلا، خشية ان يفقد النهج العلمى، الذى لا أحميد عنه، عناصره، اضافة الى كونها مجانفة لمهمة التركيز التى اتوخاها فى كتاباتى.

على ان هذا لا يحول دون الزعم بأننى أوليت الجانب الملفت للانتباه فى اعمال المحاسنى الاهتمام الخاص الحقيق به.

فالتركيب الفنى لشخصية المحاسنى الادبية يمكن ان يتحدد فى ثلاث نقاط، تلك هى رسائله الجامعية، ودراساته الادبية وموهبته الشخصية فى الشعر واعداده للملحمة العربية.

ومن الفضائل العلمية التى يتحلى بها المحاسنى فى رسائله الجامعية الزامه نفسه بقواعد صارمة من المنهجية فى التأليف، والتجرد فى البحث، والامانة فى القصد والاشارة الى المصادر.

على ان اعتماده الاسلوب الموضوعى، وركوبه المركب العشن فى رسائله، وان كان عملا صعبا يتطلب المثابرة والجلد، فانه لا يتهاون فيه، ولا يتعاجز عنه ولا يستهين به. قال فيه «شاعر الاهرام» محمد عبد الغنى حسن: «... وحين يسلك الدكتور زكى المحاسنى المسالك الوعرة فى التأليف يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة فى الاحكام، فلا يجور أو يتسر الأحكام، أو يتابع فى الآراء من غير تحقيق، ولكنه يقرأ ويحقق ويوازن ويزن ويحكم بعد اقتناع واعتقاد».

ومن خلال رسائله هذه، ذات الطابع الاكاديمى البحت، يتجلى لنا مذهبه كباحث علمى ومحقق اصيل، ويتضح حياده الفكرى فى معرض الآراء والاحكام المتعددة، المضطربة، كذلك تبرز قدرته الفنية فى التمهيد والتنسيق والاستقصاء.

فانما هو يغربل الحقائق التى يلتقطها، ويحلل الوقائع التى يتلمس خطوطها بأمانة وثقة ثم يربط المقدمات بالنتائج بخيط دقيق يكاد لا يستبين، مؤلفاً ما بين اطراف المادة المبعثرة ومتدرجاً من التفصيل الى التركيز.. ومن التركيب الى التحليل.

ولئن كان من المسلمات ان عبد الوهاب عزام علامة جليل فى نهضتنا الفكرية الحديثة، وهب حياته للبحث عن العلم فى أنصح مظاهره وانبل غاياته وقصد الاصاله والامانة فى ما ألف وانج، فاننا لنذكر فى الحال الى أى مدى تتبع خطاه تلميذه المحاسنى على البعد والقرب، مقتفياً أثره، مغترفاً من ينبوعه ثم معترفاً بفضله. أوليس هو القائل: «وتبعنا عزاماً رائد الادب والبيان» فى مقالاته التى كان ينشرها فى «الرسالة» و«الثقافة» كل اسبوع وكأنه، على البعاد، من اساتذتى الذين علمونى فى دمشق وكان لهم فضل التوجيه فى حياتى الادبية؟ ثم أليس هو القائل أيضاً: «وحين التقيت بالدكتور عزام كنت كحافر الارض زمناً حتى بلغ الى مواقع الكنز فيها؟»

ومن هنا جاءت رسالته «شعر الحرب فى ادب العرب» - وقد نال بها درجة الدكتوراه - منظوية على عناصر الريادة والاصالة والجدة، لان المحدثين لم يطرقوا هذا الموضوع - على حد قوله - من

قبل. وفي المقدمة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الوهاب عزام لهذه الاطروحة وقال: «وقد عكف فيها - أى المحاسنى - عكوف الباحث المخلص المثبت، الذى لا يقنع بما دون الغاية، ولا يسكن الى الدعة ولا ينوء به النصب والدأب».

اما المحاسنى نفسه فيقول: «وقد اتخذت لبحثنى النهج العلمى فى التبريد والتفصيل والترقيم، معتمدا على التحليل والتمحيص حيناً وعلى المقارنة والنقد حيناً آخر.. لاستكشاف الظواهر الادبية الحماسية وربطها - اذا دعا الامر - بأسباب السياسة والتاريخ».

والمحاسنى مجدد على مستوى الادب الصحيح.

ان فى قيامه بدراسة بعض الشخصيات الشهيرة فى تاريخ الادب، كأبى العلاء المعرى وأبى الطيب المتنبى وأبى نواس من القدامى، وكأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وابراهيم طوقان ومن اليهم من المحدثين، معنى من معانى الوفاء الانسانى.. ودلالة من دلالات تخليد الثقافة العربية فى آفاقها واعماقها، فى عظمتها ومثاليتها، لا لشيء إلا لأن هاتيك الشخصيات افنت ذواتها وجندت قواها العقلية والشعورية من اجل تعميق القيم الحياتية والمبادئ الاجتماعية والحضارية التى آمنت بها الذات العربية واستمدت منها روح يقظتها ومفتاح شخصيتها ومهماز بقائها على العصور والاجيال، كذلك سخرت امكاناتها وملكانتها فى سبيل تطوير الاساليب الادبية والمقاييس الفنية لتعمل تأثيراً وتوغلاً فى مجرى الازهان ومسارب الاحاسيس..

ولتبقى قاعدة عريضة يلتقى على صعيدها القديم والجديد، الماضي والحاضر.

وكيف لا يعير المحاسنى الشاعر اهمية لشاعر كالمثنبى وهو، كما يقال، ابو المعانى، وهو ايضاً أعظم شاعر فى سمو الفكر وقوة الشعور، انجته الامة العربية مفردا فى جميع عصورها الادبية المتطاولة؟

دع كل صوت غير صوتى فانى

أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

وأما أبو العلاء، الذى تناوله المحاسنى فى أطروحته التى نال بها درجة الماجستير، فحسبه انه الرائد الذى أدخل الفلسفة فى الشعر العربى باقرار من تاريخ الادب، والذى نقد المجتمع فى أفكاره واشعاره ذلك النقد الرائع العميق. اجهاضاً لثرهاته وسقطاته، وابداجادا لمناخ الحق والعدل فيه ثم نهوضاً بأفراده المنتمين الى الجماعة الانسانية. لذا يقول المحاسنى: كذلك أجيبب أبا العلاء على ريق الشباب، فأخذت بكتبه مدارس وممارسة. وخطوط الشباب، فاذا أنا بضيف النيل أكتب عن شاعرى. ولكن سبقنى الكتاب، على كثرتهم، فى التصنيف عنه لداعية ألف عام مرت على مولده أو لسوانح تسنح لهم فى أدب هذا العبقرى الشامى الذى خلد على الزمان فما واحد منهم وقف كتاباً على نقده للمجتمع، وهل أبو العلاء الا ناقد المجتمع فى كل شعره وعميم نثره؟.

ثم من الذى يتجاهل أبا نواس، داعية الثورة على الاطلال الدارسة وداعية الحياة فى تطلعاتها، فيه يقول المحاسنى: «لقد كان هذا الكتاب من بواكير أعمالى الادبية منذ ثلاثين عاماً، يوم لم يكن أحد من المعاصرين قد تقدم بدراسة جامعية ومنهجية لشعر ابى نواس وأدبه».

والمحاسنى، كأديب ملتزم داخلياً، متصف بدقة الحس ويقظة الوجدان، لابد، أن يتجاوب مع الاحوال التى تحيط بشخصه، ومجتمعه وأمته، وان يتأثر بمن يشاطره مشاعر الوفاء والاخاء ويساقيه كؤوس العلم والمعرفة.

ومن هنا كان كتابه «طوقان: شاعر فلسطين» وليد تفاعله مع الأحداث المفجعة التى رافقت قضية العرب الاولى. فقد قال: «وإذا كان شعر طوقان قد ارتبط بقضية بلاده قبل النكبة وبعدها.. وعبر فيه عما لابسها قبل احتدامها فقد رأيتُه جديراً بالدراسة والتمحيص».

بينما كتاباه «أحمد أمين» و «عبد الوهاب عزام» هما عصارة زمالة فكرية.. وتلمذة، أو صداقة روحية استغرقتنا شطراً من عمره واستوعبتا، بالنسبة اليه، وجوده الذاتى والفكرى. وقد صور هاتين الشخصيتين، الرائدتين بلمساتهما، تصويراً واقعياً.. وعبر عن مبلغ تعلقه بهما تعبيراً أميناً. مثلاً يقول عن أحمد أمين: «.. أما أحمد أمين فقد رأيت صورته فى كتابه «حياتى» كما رأيتُه فى العيان والممارسة، ولم أجد الشخص الذى فى الوجود مخالفاً للشخص

الذى صور نفسه على الورق.. بل لمست فيه تواضع العلماء والبعد عن التبرجح والغرور» .

دراسات المحاسنى للشخصيات تراوح ما بين الطريقة الكلاسيكية البحتة والطريقة التحليلية المعاصرة. فاذا كان كتابه «المتنبى» و «طوقان: شاعر فلسطين» يخضعان لأسس الطريقة الكلاسيكية فان كتابيه «أحمد أمين» و «عبد الوهاب عزام» يختلفان عنهما من حيث التعليل والتفصيل، والاستقراء والاستنتاج، ثم تحويلان شينا غير ضئيل من عناصر الخلق والصدق. ولعل لعلاقة المحاسنى الوطيدة بالرجلين دخلا كبيرا فى ذلك كله. لننظر ما يقول المحاسنى بهذا الصدد: «.. وهكذا كنت أقرأ «أحمد أمين».. فأتخيله فى شكله وسمته.. وأستخرج صورا حية من عاداته وصفاته من طول التنقيب فى كتبه ومقالاته قبل أن أعرفه من قريب.. وتجمعنى اليه مودة فكرية وتبعات حكومية» .

أما كتاباه الآخران «أبو نواس» و «أبو العلاء ناقد المجتمع» فتتمثل فيهما الطريقة المعاصرة بالرغم من كون الاول صادرا قبيل الاربعينات وبعدها، الا أنه دليل ساطع على ملكة المؤلف الفذة فى البحث والمقارنة والدراسة.. لقد اصاب الدكتور فوزى عطوى كبدا الحقيقة حين عرّج على المحاسنى فى كتابه «أبو نواس» بقوله: «.. وقد انعكس فى الكتاب أثر الثقافة العالية التى يتمتع بها الدكتور زكى المحاسنى، وذلك من خلال الدراسات المقارنة التى أجزاها ولو بصورة عاجلة» .

وللمباحث الفكرية قدر كاف في آثار المحاسنى، استهل بها اهتماماته الادبية الاولى معالجاً اياها بحصافة العالم.. وحساسية الاديب وذوق الفنان، تحديداً لملامح الادب المعاصر وتطوراته واصدائه.. وتسمية لقادته من شعراء وادباء ممن شيّدوا صرحه الشامخ، القائم أبدي الدهر.

ففى كتاب «نظرات فى أدبنا المعاصر» يرصد المحاسنى نهضة الادب الحديث فى ما واكبها، وما اشتجر حولها وما تجدد فيها، من خلال الظروف الموضوعية للاقطار العربية التى بلورت هذا الادب واكسبته مقوماته الخاصة.. واسفرت عن القيم الجديدة المتأثرة بالمثل الحضارية، وبمدى قدرة هذا الادب على التفاعل مع الاحداث.. واستيعاب قضايا الانسان العربى فى جميع البلدان والاعراب عنها بطلاقة واخلاص.

على ان الشئ الحرى بالانتباه هو ان المحاسنى، وان كان مؤمناً فى قرارة نفسه بالادب العربى بسبب خصائصه الذاتية والانسانية، فانه يرى أن هذا الادب غير جدير بالارتقاء الى المستوى العالمى.. أو الى درجة القياس به.. لافتقاره الى مياسم العالمية فى الاصاله والعمق والجدة والتأثير. انه ليقول: «ان الحقيقة، التى هى بغية كل باحث، تقول: «ليس ما لدينا من آثار ادبائنا، شيوخا ومحدثين، الا القليل الضئيل مما نستطيع ان نقدمه الى جنب الادب العالمى».

ولكن هذا ليس بهمانه من الاعتراف بأنه كان لنا أدب عالمى،

ولكن اين هو الآن ؟ بل اين نحن منه... ولم لم نصله بالحاضر
الراهن ؟ لقد تخلفنا وتخاذلنا، وغيرنا ما بأنفسنا، مستمرين نشوة
الخمول والخدر، حتى غدونا حيث نحن اليوم.

«لقد كان لنا ادب عالمى فى العصر العباسى والاندلسى، وكان
لدينا أفذاذ فيه عالميون. وحين نذكر الجاحظ، وأبا الطيب المتنبي وأبا
العلاء المعرى نعز بهم فى كل عصر».

ومع هذا كله فالمحاسنى لا يكفر بالضمير العربى ولا يفقد امله،
معتقدا أما بالامكان اللحاق بالركب العالمى فى ميدان الادب والفكر
اذا عرفنا كيف نفتحم آفاق هذا الميدان، وكيف نطبع ذواتنا بطوابع
العصر ونحولاته، والحضارة ومبدعاتها والواقع ومتطلباته، ثم اذا عرفنا
كيف نصور تجاربنا وما تعانیه نفوسنا. وعبرنا عن أصالتنا الانسانية
وترائنا الحضارى وبالارتفاع الى ذروة الفن الحقيقى والفكر الواقعى
ليتميز أدبنا العربى المعاصر بالعالمية فى المعنى والمبنى.

والمحاسنى المؤمن، يصوغ الحياة الأدبية بكل مناحيها وأهوائها
على اساس من الدين.. متمثل فى «القران الكريم» و «الحديث». إنه
يدعو الناس إلى الالتزام بالقيم الاسلامية التى أخرجت البشرية
التائهة من ظلام الجهالة الى نور الهدى والرشاد.

إذ يرى أن الادب لايمكن أن يزدهر الا فى ظلال الدين،
فيقول: «لا يعيش الأدب منضوح البيان بالسحر الحلال وفصل
الخطاب إلا فى حمى الدين، ولقد عرفت الأمم القدامى فى حياة
الشعر والفن تراويل العبارة فى طقوس الدين».

صحيح ذلك.. ما دام الأدب هو النتيجة الطبيعية لدراسة الدين.. وكشف خصائصه وحقائقه بعد النفوذ الى أغواره وجذوره وترك ما لا صلة له به. يتجلى ذلك كله فى كتاب المحاسنى «الادب الدينى»، الذى ينتظم دراسات أدبية فى منتهى الروعة والتوافق الفكرى.. لا لشيء إلا لانه اعتمد «القران الكريم» و «الحديث» - كما نوهت - أساساً فى طريقة تناوله الموضوعات الكونية والوجودية، والقضايا الفردية والبشرية فى الجاهلية والحياة المعاصرة، علاوة على المناهض الأخلاقية والأدبية فى ضوء التطورات الحديثة.. وعلاوة على قصص بعض الشخصيات الاسلامية التى غيرت وجه التاريخ وأرهضت، فى ظهورها، مفاهيم لم يكن للمجتمع العربى قبل بها. ومن مطاوى هذا الكتاب: «التجسيم النفسى فى القرآن الكريم»، «الوجودية المذهبية فى القلق»، «من آثار القرآن فى الآداب العالمية»، «شعر الجهاد فى ادب الاسلام»، «الفلسفة الاسلامية عند ابن تيمية»، «الرسول يصنع وحدة العروبة». وفى هذا الفصل الاخير يقول: «... ولا شئ يؤلف بين القلوب كالسلاح بين المجاهدين، فان اجناد الرسول وقواده كانوا كتلة واحدة كأنهم البنيان المرصوص، فخرجت هذه القبائل من معركة بدر تجرر اذيال النصر وتخفق فوق رؤوسها رايات العزة بظفر الرسول وصحبه. وقد تركت هذه المعركة فى ادب العرب القديم شعرا كثيرا قيل فى الفخر والثناء.. مازال الى اليوم يهيج كامن العظمة فى العروبة على الزمان».

وفى نهاية المطاف ينبغى ان نقف على ما هو واقع.. نشداناً للحقيقة العلمية التى عمل المحاسنى من أجلها ولأجلها.

إن المحاسنى، وإن تمسك بنظرية «تين» فى البحث والنقد، وهى التى تعنى بدراسة بيئة الكاتب أو الشاعر وظروفه الموضوعية.. وتحليل العوامل المؤثرة فى تكوينه وثقافته، فانه كمجدد، يؤمن بمبدأ التطور والانفتاح على العالم، لايفلق أبواب المباحث العلمية التى يعالجها.. بل يفتحها على مصاريعها ليجلوها من يشاء من بعده وبما يشاء. ومن طبيعة الاشياء أن يظل باب العلم مفتوحا، هذا هو الصحيح.

على أن أسلوب المحاسنى تكتنفه بوجه عام، استطرادات، ولعله بهذه الظاهرة التى شملت حتى رسائله الخاصة متأثر بالجاحظ، الرائد الذى اختص بهذه الخصيصة الفنية الفريدة. ثم هو - أعنى المحاسنى -، فى طريقة معالجته الموضوعات يستعير من القديم ثوبه ومن الحديث روحه، عملا بقاعدة الجمع بين الاول لأصالته وفخامته وبين الثانى لطرافته وجدته.

وسبب من سعة ثقافة المحاسنى.. وتنوع روافدها العربية والغربية.. يتولى مهمة الموازنة ما بين الكتاب والشعراء فى الشرق والغرب ممن رافقهم فى رحلة الفكر، وذلك من خلال تفسيره لبعض الظواهر الأدبية المعينة، مع ما فى الامر من تعزيز لآرائه وافكاره، وافصاح عن غزارة علمه وتناهى افقه، كما فعل حين وازن ما بين مالتوس وابى العلاء المعرى(١)، وما بين رامبو وأبى نواس(٢) .. وما بين فيكتور هيغو واحمد شوقى (٣) الخ...

(١) انظر «ابو العلاء ناقد المجتمع». (٢) أنظر «النواسى شاعر من عقره».

(٣) انظر «نظرات فى ادبنا المعاصر».

هذا والبعد الذاتى يترامى أمامنا واضحا كلما توغلنا فى دراسات المحاسنى حيث يدخل طرفاً فى الموضوع، فيبدأ بالتحدث عن ذاته فى مساق الكلام، حديثا تقائيا مستطابا، محاولا ان يربط، بينه وبين أسباب الموضوع الذى يتناوله بعامل فنى.

تفسيرى لهذا كله هو أن المحاسنى يندمج بما يعالج اندماج المستغرق.. ليضفى فى ذلك بعداً ذاتيا. والاديب الصادق يعبر، عبر سطره ومؤلفاته، عن تجاربه ومعاناته بعفوية لحمتها الاصاله.. وسداها الاخلاص. واما شعره فان ديوانه الذى سينشر قريبا هو الذى سيتحدث عنه ويدل على فيض قريحته وقيمة محتواه.
